

التوظيف اللفظي القرآني بين بلاغة الانتقاء ودلالة السياق؛ قراءة وصفية في الفروقات اللغوية Qur'anic Lexical Usage between the Eloquence of Selection and the Significance of Context

- Descriptive Reading of Linguistic Distinctions -

* زليخة زراولة

Zouleykha Zeraoula

جامعة الجبيلي بونعام - خميس مليانة - (الجزائر)

Djillali Bounaama University of Khemis Miliana (Algeria)

zouleykha.zeraoula@univ-dbkkm.dz.

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/11/08

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

تتناول هذه الورقة البحثية موضوع الفروقات اللغوية في الخطاب القرآني، بعده مبحثا من أهم مباحث العربية، التي تهتم بدراسة الألفاظ المتقاربة في المعاني، تلك الألفاظ التي يُحيل إلى بعض متحدثي العربية أنها مترادفة، إلا أن علماء العربية وبجاستها قد أبانوا أوجه الاختلاف بينها، هذا بعد أن تعاملوا معها بعقل تنقيبي نبيه مكنهم من تبيان درجة التفاوت الموجودة بين تلك المعاني، وأبو هلال العسكري (ت 395هـ) من أبرز علماء العربية الذين خصّوا هذا الموضوع بعناية فائقة.

وبعد كل ما قيل تستهدف هاته الدراسة معالجة هذه الظاهرة اللغوية من خلال الخطاب القرآني، لتتطر في بلاغة انتقاء ألفاظه، ودقتها، وتكشف عن الدور الفعال للسياق في تحديد الحدود الدلالية للألفاظ. ومن ثمة فقد خلّصت الدراسة إلى طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى يمكن للسياق أن يؤثر على انتقاء الألفاظ وتوظيفها في الخطاب القرآني؟

وعليه فقد توصلت الدراسة إلى أن كل لفظة في القرآن الكريم قد وضعت بحكمة وبلاغة، ثم عن عمق المعاني واتساعها فيه، ومدى مواءمتها للسياق المضمن لها، وهو ما يؤكد أن للعربية ثراء لا نظير له. الكلمات المفتاحية: الفروقات، اللفظ، القرآن، الانتقاء، الدلالة، السياق.

Abstract :

This research paper investigates linguistic distinctions within Qur'anic discourse, an area central to Arabic studies focused on analyzing seemingly synonymous words. Drawing heavily on the scholarship of Abū Hilāl al-'Askarī (d. 395 A.H.), the paper

* زليخة زراولة: zouleykha.zeraoula@univ-dbkkm.dz

systematically explores how subtle differences between lexically related terms are uncovered through scholarly analysis. This study analyzes this linguistic phenomenon through Qur'anic discourse, highlighting lexical eloquence and precision while uncovering context's role in shaping word choice and semantic boundaries. The primary research question addresses the extent to which context influences the selection and deployment of words in Qur'anic discourse. Accordingly, the study concludes that every word in the Noble Qur'an is purposefully chosen with wisdom and eloquence, revealing both profound semantic depth and contextual appropriateness. This substantiates the unique richness and expressive capacity of Arabic.

Keywords: : distinctions; lexis; Qur'an; selection; semantics; context



1. المقدمة:

تتاز اللغة العربية بثرء لغوي كبير جدا مكّنها من مكانة عالية تجابه بها باقي لغات العالم، هذه اللغة التي اختارها الله عزّ وجل لأن تكون الوعاء الحامل لكلامه، المعجز بلفظه ومعناه، واللغة التي اجتمع فيها البيان، والبدیع، والدقة والابجاز، ما فتئت تزيل حبر أفذاذ الدرس اللغوي العربيّ دفعا إلى سبر أغوارها، واستخراجا لمكنونها، قراءة وتمحيصا، واتخاذة حجة للرد على كل من ألحق بها صفات العجز والجمود، سواء من أبناءها أم من غيرهم، ممن سعى إلى ضرب كيانها، والتقليل من شأنها. بيد أنّ هذا البهتان اللا مبرر له قد تلاشى مع تصدي أبناء العربية الغيورين عليها، ممن رأى في ضربها ضرب في القيم الدينية، وفي الهوية ككل، فما كان لهم إلا أن جتّدوا خبائثهم، ومعارفهم وتناولوها بفكر لغوي حسیف، لا یكل ولا یمل.

فمضوا فيها مضی المكاشف الحائم بمسائلها اللغوية وقضاياها الجوهرية، فأثبتوا أنّ العربية التي وسعت كلام الله لفظا وغاية، لا تعجز عن وصف أجهزة، أو سرد أحداث، أو نسج خيال، فقد أظهرت للعالم أجمع، و لعلماء اللغة على وجه الخصوص الظواهر المائزة في العربية، فكانت البداية من المدرج الصوتي المماز بقدرته على تمكين أبناء العربية من نطق أي صوت في أي لغة من لغات العالم، وإتقانه مخرجا وصفة، وهي ميزة تجعلك لا تفرّق بينهم وبين أبناء تلك اللغة، لقوة حذقهم في التهجي وشدة تمكّنهم فيه، وهي ميزة لن تجدها إلا في العربية فقط، وإن أردت دليلا على ذلك، لك أن تقف عند متحدثي العربية من غير أبناءها، فهل يمكنهم المدرج الصوتي التابع للغتهم من نطق أصوات العربية وإتقانها مخرجا وصفة؟ طبعاً لا. فالكثير منهم يستعصي عليه نطق أصوات كثيرة مثل (ع، الحاء، الظاء، الضاد، وغيرها، حيث تجدهم يلحنون في قراءة أبي القرآن الكريم ويستبدلون بأصوات تتقارب معها في المخرج مرة وفي الصفة مرة أخرى. وهذا دليل على أنّ المدرج الصوتي العربي ممتاز عن مدارج لغات العالم بأسره.

ومن الظواهر المائزة في العربية كذلك ظاهرة الاشتقاق، وهي بمثابة آلة توليدية تزيد العربية ثراء وتوسعا، وتمنح للفرد فرصة بأن يلمم عدّة كلمات من أصل لغوي واحد، وإثك لتجد في الاشتقاق أقساما مختلفة، تظهر من خلالها منهجية توليد الألفاظ وتوسع المعاني، وتقربك من طبيعة العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، وإذا أردت الحجة على هذا القول خذ الاشتقاق الصغير، والكبير، والأكبر، والكبار على محمل الجد، وتناولها بفكر علمي حصيف، وعقلي تنقيبي نبيه، وقتها ستقف على فروقات لغوية عديدة. فاللفظ العربي له أحوال ألحت على علماء العربية بضرورة وضع علم يهتم به، ويتخذ به بؤرة دراسته، وقد تحقق المطلب بوضع علم المفردات الحائم بأدق تفاصيل اللفظ العربي.

ومن ثمة جاءت فكرة معالجة هذا الموضوع الذي يبحث في خصائص اللفظ العربي في القرآن الكريم، وبالتحديد من خلال ظاهرة الفروقات اللغوية التي تقف عند الألفاظ المتقاربة في المعاني، حيث تكشف أنّ كل مفردة لها إطارها الخاص، ووظيفتها في السياق، ليس بإمكان مفردة أخرى تأديتها عنها، حتى وإن تشاركت معها المعنى العام، أو الجذر اللغوي ذاته، وقد أردنا تتبع هذه الظاهرة اللغوية من خلال الخطاب القرآني الذي يظهر فيه التناسق والانسجام بين اللفظ والمعنى، رغبة منا في استخراج كنوزه وإثارة دافئته.

وبعد كل ما قيل خلص الحديث إلى طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى يمكن للسياق أن يؤثر على انتقاء الألفاظ وتوظيفها في الخطاب القرآني؟ وترويضاً لهاته الإشكالية فإننا نصوغ مجموعة من القضايا اللغوية نستهدف من وراءها الوقوف عند حدود ظاهرة اللغوية محل الدراسة، وذلك بالبحث في بدايتها، وأهم العلوم التي درستها، ناهيك عن المعايير المتحركة أو المؤثرة في التوجه الدلالي لكل مفردة في الخطاب القرآني، والمرد ذلك يعود إلى تبيان قوة السبك في العربية من جهة، وبلاغة اللفظ القرآني من جهة أخرى.

2. دراسة الألفاظ في علوم العربية:

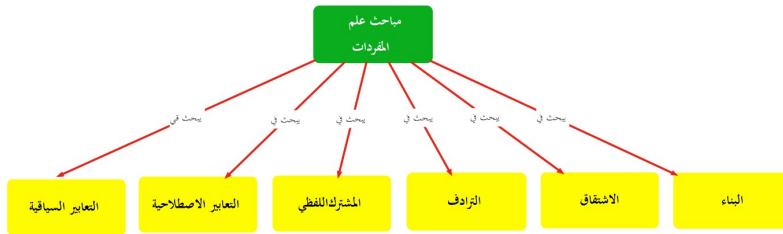
إنّ الوقوف على أحوال اللفظ العربي هدف يبقى رهين البحث عن تلك العلوم الآخذة به، تلك العلوم التي كانت المفردة بؤرة دراستها، فما تركت شاردة ولا واردة إلا ووقفت عندها، وخصتها برؤية فاحصة مردها إلى الجد، والجهد، والخلق، والتفاني في خدمة العربية وعلومها، وعلم المفردات Lexicology من أبرزها، حيث تظهر علاقته باللفظ العربي من خلال البحث في ميزاته وخصائصه، هذا العلم الذي تحدث عنه علي القاسمي وخصّه بدراسة "الألفاظ من حيث اشتقاقها، وأبنيته، ودلالاتها، وكذلك بالمتزادفات والمشتكرات اللفظية، والتعابير الاصطلاحية والسياسية"¹. أما منير بعلبكي فيرى في علم المفردات قسما أو فرعا تابعا لعلم الدلالة، يستهدف دراسة المفردة من جوانب مختلفة، سواء ما تعلق بالشق الاشتقاقي، أو الدلالي، على أن تكون هذه الدراسة على شكلين اثنين: الأول منها تكون الدراسة فيه وصفية لما هو كائن وحاضر، في حين يتخذ الشكل الثاني بعدا تاريخيا يتتبع تطور التوجه الدلالي لتلك الألفاظ².

وعلى ضوء التعريفين السابقين يتبين للقارئ أنّ الأول منها قد نظر إلى علم المفردات من خلال وظيفته، وأبان بأنّ تمرّكها حاصل في دراسة الألفاظ في تشكيلاتها المختلفة (اشتقاقا، وبناء، ودلالة)، في مقابل ذلك نلاحظ أنّ بعلبكي قد وجدّ في بيان أصل هذا العلم ضرورة ملحة في ذلك؛ حيث استهل تعريفه بعده فرعا من فروع علم الدلالة، ثم تدرّج في الحديث عن وظيفته التي تتشارك مع وظيفة علي القاسمي، غير أنّ بعلبكي قد أضاف على الوظيفة الحالات، أو الأوجه،

أو الأبعاد التي يتخذها علم المفردات أثناء دراسته للمفردة، وذلك بأن حصرها في نوعين اثنين من الدراسة هما: الوصفية الآنية، والتاريخية التطورية.

وعليه يخلص الحديث إلى أن المفردة أساس علم المفردات وعماده، وكل ما لحقها من ظواهر لغوية كالبناء، والاشتقاق، والترادف، والمشارك اللفظي ناهيك عن التعابير الاصطلاحية أو السياقية، والتي تبين أن علم المفردات لا يدرس الكلمة منفصلة فحسب، بل يهتم أيضا بالعبارات المكونة لها، وكذلك بالسياق الواردة فيه، لما له من تأثير كبير على المعنى المتشكل.

الشكل (1) مباحث علم المفردات



المصدر: من إعداد الباحثة

فهذه الظواهر تشكل فروقات لغوية في العربية، ويكون لها تأثير بليغ على المعنى المحصل، فقد تجد لفظا مكررا في النص غير أن هذا التكرار لا يأتي من باب العبث أو العشوائية، بل وراءه حكمة وتباهة، فالاسم - كما هو مسلم به عن الجميع - كلمة تدل على دلالة الشيء المشار إليه، فنحن عندما نقول مثلا: (البحر) و (اليم) فالاسم الأول يحملنا إلى معنى يختلف درجته عن المعنى الكائن في الاسم الثاني (اليم)، حتى وإن تشاركا في المعنى العام، غير أن درجة المعنى تختلف، ولنا في ثنائية (البحر واليم) ضرب من ذلك، فإن استعملت في المرة الأولى لفظة (البحر) ثم أعقبته (باليم) كان هذا التكرار لفائدة يفرضها السياق، فليس من باب الحكمة والبلاغة أن تأتي بتكرار من غير إضافة تحمل، وقد تحدث أبو هلال العسكري عن هذا الموضوع فقال: "إن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صوابا فهذا يدل على أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد منها يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه"³.

وحتى لا نطيل فيما هو بين لأبناء العربية، خاصة أولئك الذين خصّوها بأبحاث لا يحصى لها عدد، ولا ينقطع لها مدد، فإننا نعقب هذا التأصيل النظري الموجز بنماذج تطبيقية من القرآن الكريم، تكون الألفاظ المتقاربة في المعنى القضية اللغوية المستهدفة، - وهي غاية كشفنا عنها في مقدمة الدراسة - غير أن الاشتغال على بلاغة اللفظ القرآني وعلاقته بالسياق يدعونا إلى الوقوف عند طبيعة المعايير أو العوامل المتحركة في التوجه الدلالي لكل مفردة، فالأكد أن لكل دراسة تطبيقية إجراءات أولية، وهو منهج التزم به دراستنا قبل أن نخوض في سبر أغوار اللفظ القرآني ودلّاته.

3. دراسة تطبيقية عن الفروقات اللغوية في القرآن الكريم:

1.3. الإجراءات الأولية للدراسة التطبيقية: ترسم هذه الإجراءات العوامل المتحركة في تحديد المعنى، والتي تكون على ارتباط وثيق بالمشق الدلالي للمفردة، هذه المعايير يجدها القارئ تترى وفق النظام الآتي:

أ/ الصوت: ويظهر تأثير الصوت من خلال ابدال صوت مكان صوت آخر، وهو باب تحدث عنه ابن جني تحت مستوى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، كما في قولنا: (سَدَّ و صَدَّ) فكلاهما بمعنى الحاجز، غير أنَّ الأول يقال في موضع لا يستدعي قوة أو بذل جهد كبير للتمكن منه، مثلاً: سَدَّ الباب، فالصغير والكبير يقوى على هذا الفعل، فكان بعدها أن لازمت (السين) (الدال)، وهذا بما يتوافق وطبيعة الفعل، فصوت (السين) من الأصوات الأسلية، لأن بدايته تكون من أسل اللسان، ومن الأصوات المهموسة كذلك، والهمس أخف من الجهر، لذلك ناسبت هذا الموضوع من الكلام.

في مقابل ذلك نجد أنَّ لفظة (صَدَّ) تتميز بالقوة والحشونة، وإن القيام بهذا الفعل يدفع بصاحبه إلى بذل جهد كبير، كأن تعقب لفظة الجبل مثلاً، فنقول: (صَدَّ الجبل). فالجبل شيء ضخم، وصلب، والتمكن منه يلزمك قوة وجهدا كبيرا، ولما نعود إلى الميزة الصوتية لصوت (الصاد) نجد أنها تتوافق مع عامل القوة، فهو صوت مجهور، وفي الجهر قوة - وإن تشارك مع صوت (السين) المخرج - إلا أنها قد اختلفا في الصفة. وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61] فالأكيد أنَّ إعراض المتافقين عن الإيمان، وعمّا دعوا إليه فيه مبالغة وقوة، وهو ما أبان عنه المصدر المؤكد (صدودا)، الذي يأتي تأكيداً على أنَّ انغماسهم في التفاق كان عظيماً، والعظمة فيها قوة، والقوة رهينة جهد وحكمة، فكذلك الحال هنا مع فعل المتافقين. لذلك ناسبت (الصاد) (الدال) بدل (السين)، ومن ثمة يتبين أنَّ للصوت تأثير على المعنى المحصل.

ب/ البناء (الصيغة الصرفية): إنَّ الكلمة في اللغة العربية تخضع لميزان صرفي مكون من ثلاثة أحرف هي (ف ع ل)، وهذا بعد أن "اعتبر علماء الصرف أنَّ أصول الكلمة ثلاثة أحرف، وقابلوها عند الوزن بالفاء، والعين، والآم، مصورة بصورة الموزون"4، والمراد بالبناء أو الأبنية هي "هيئة الكلمة المرفوعة من حركة وسكون، وعدد حروف، وترتيب"5. فعلم الصرف كعلم المفردات يهتم بالألفاظ من نواحي مختلفة كالصحة والاعلال، والأصالة والزيادة، والجمود والاشتقاق، وغيرها من الظواهر الصرفية، التي تسعى إلى صون أبناء اللسان العربي من الوقوع في الخطأ أو اللحن في مفرداته، لأنه حتما سيؤدي إلى تغيير في المعنى المؤمل.

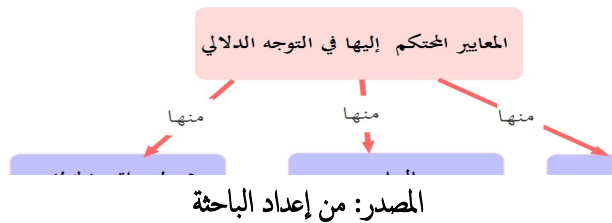
وكما لا يجوز أن يحمل اللفظ الواحد معنيين مختلفين كذلك الحال في البناء، حيث أكد أبو هلال العسكري - الذي يُعدّ من أكثر العلماء الذين خصّوا موضوع الفروقات اللغوية بالدراسة والتحصيل، والعناية الفائقة - استحالة تحقق ذلك التوافق، فلا يجوز أن يكون (فَعَلَ) و(أَفْعَلَ) بالمعنى ذاته، فما داما يختلفان في البناء فحما سيختلفان في المعنى6. فمثلاً: (عجم) ليس (كأعجم)، و((قسط) ليس (كأقسط)، فما تحمله صيغة (فَعَلَ) من معنى في المثالين السابقين هو نقيض ما تحمله صيغة (أَفْعَلَ) وقس على المثال الأبنية الأخرى، والدارس المتمتع في القضايا الصرفية سيتمثل له هذا التباين؛ فأفعل مثلاً يأتي بمعاني مختلفة مثل: التعدية، في قولك أقمت محمداً، فبعدما كان الفعل (قام) لازماً أصبح متعدياً، ومن معانيه أيضاً: صيرورة الشيء، والدخول في الشيء، والسلب والازالة، ومصادفة الشيء على صفته، والتعريض، والاستحقاق7.

فهذا الطرح يأتي من باب إثبات ما ذكره أبو هلال العسكري، من أن الاختلاف في المبنى اختلاف في المعنى، حتى وإن تشارك اللفظان الأصل اللغوي ذاته. كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ مَنْ أَعْقَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ دُكْرِنَا﴾ [الكهف: 28] ففعلٌ متعدٍ بمفعول واحد، وهو بمعنى سهى، كما تقول غفل الولد عن الدرس، فالسهو كان بفعله هو، أما في قولك: أغفلنا فهذا فعل متعدٍ بمفعولين، والدلالة السياقية في الآية تشير إلى تلك المعاني التي تحدثنا عنها سابقاً لأفعل، والتي منها التعدية، إذن القصد في الآية من أغفل الله قلبه عن ذكره. وإثباتك لتجد عن هذه الحال أمثلة كثيرة في الخطاب القرآني.

وحتى لا يظن القارئ بأن الموضوع هنا يقتصر على الثلاثي المزيد بحرف، فإننا نقول: إن هذه الحال تلحق بجميع الأوزان التي تعقبها زيادة، سواء في الفعل الثلاثي، أو الرباعي، فكل زيادة في المبنى هي زيادة في معنى أيضاً، فقد تأتي هذه الإضافة لتقوية المعنى ذاته في البناء الأصلي، وقد تأتي لمعانٍ أخرى كما سبق التمثيل.

ج/ محيط متلقي الخطاب: إن توظيف المصطلحات في الخطاب القرآني يأتي بمنهج دقيق، وبحكمة بليغة، بحكم أن متلقي الخطاب تحكمه ظروف نفسية واجتماعية، والسياق القرآني لم يغفل هذا الجانب، بل خصه بعناية فائقة، لذا فكل كلمة استعملت في الخطاب القرآني إلا ولها علاقة مباشرة بشخصية المتلقي وبجالاته آنذاك، فقد يكون المتلقي في حالة حزن، أو خوف، أو قلق وغيرها من الاضطرابات النفسية التي تؤثر على لغة الخطاب، ووحده اللغوية وتراكيبه، والسياق الذي هو " بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"⁸ يعبر اهتمام لهذه الأبعاد السياقية.

الشكل (2): المعايير المحتكم إليها في التوجه الدلالي



2.3. نماذج تطبيقية مختارة عن بلاغة اللفظ في الخطاب القرآني انتقاء ودلالة:

أ/ ثنائية (الفؤاد والقلب):

الجدول (1) التوجه الدلالي في ثنائية القلب والفؤاد

الثنائية	أمثلة تطبيقية
الفؤاد	﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء: 36] ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10] ﴿نَارَ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 6، 7]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: 260] ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]	القلب
---	--------------

المصدر: من إعداد الباحثة

يلاحظ من خلال الجدول أعلاه أن القرآن الكريم قد وظف كلمة القلب والفؤاد في السياقات مختلفة ومعان متباينة، والأكد أن هذا التباين يمكن أن تحدد بلاغته من خلال الرجوع إلى معاني اللفظتين في المعاجم العربية، وأيضا إلى المصادر التي اهتمت بدراسة مفردات الخطاب القرآني، دون أن تغفل السياق القرآني، من خلال العودة إلى كتب التفسير، وقتند تظهر للقرائي حكمة الله عز وجل في توظيف الألفاظ في كتابة المعجز لفظا ومعنى.

ومن ثمة فقد جاء في المعاجم العربية أن (فأد) بمعنى احترق وشوي. كأن تقول: فأدث الحبز، أي شويته، والشيء نفسه في قولك فأدت اللحم، فقولك لحم فئيد أي مشوي على النار، وقولك رجل مفؤود أي الذي أصاب فؤاده وجع⁹. والتفؤد هو التوقد، والتحرق، وفي قولنا: افتأدوا بمعنى أوقدوا ناراً¹⁰. ومن ثمة يكون توظيف لفظة (الفؤاد) دائما مقترنا بحالات التحرق، والتوقد جزاء أوجاع أو ظروف سيئة تنهك جسد الانسان وتضعفه.

ونحن عندما نعود إلى السياق القرآني نجد أن توظيف لفظة (الفؤاد) حقيقة يقترن بالمعاني المذكورة سلفا، ففي قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِّي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَاهُ عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10] ، بيان على ذلك، حيث يكشف لنا السياق القرآني أن حالة أم موسى وقتها كان يحترق معها قلبها، وجعا على فراق ابنها، وخوفا مما سيحدث له، إما في البحر، أو من فرعون وجنوده، فشدة خوفها وصلت لأن يتفأد قلبها، ولما تكمل قوله تعالى (وإن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) نستخلص أن الموقف يستدعي قوة وشجاعة للتحمّل. إذ كانت ستحدث عن حالها وتكشف ما وقع لها، وبأنها قد ألقت بابنها في التيم، ومن ثمة يذيع الخبر وينتشر، ويعلم العامة والخاصة أن هذا الطفل الذي التقطه فرعون وجنوده هو ابنها، غير أن الله عز وجل قد شدّ على قلبها، أي أسكنه بالصبر¹¹. وعليه يكون توظيف لفظة (الفؤاد) هنا أحق من توظيف لفظة (القلب)، فالفؤاد كالقلب لكن يستحسن توظيف لفظة (الفؤاد) إذا صبت في معنى التوقد والتحرق.

ولما نعود إلى الآيتين المتبقيتين نقف على الحقيقة ذاتها، ففي قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مُسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36] ، نجد أن السياق القرآني للآية حمل دعوة إلى الترك والابتعاد عن كل ما ليس للعبد به علم، فالإنسان مسؤول عما يسمع، وعما يرى، وعما يدرك ويحس، فالإدراك والاحساس مكانها الفؤاد، ولنضرب مثلا على ذلك، أنك لو أسأت الظن بشخص، ثم رسمت عنه صورة سيئة ليست هي التي هو عليها، وقتها هذا الظن سيولد مشاعر سيئة، وحزينة في نفسية ذلك الإنسان، تؤدي إلى اضطرابات نفسية، ففي هذا التغير حدث ما ستمناه سابقا بالتوقد والتحرق الداخلي لهذا الشخص، كما لنا في حال أم موسى حجة في ذلك أيضا، فلما كان حال كذلك جاء الخطاب في لفظة الفؤاد بدلا من القلب، لأننا قلنا إن القلب يلحق ما فيه علم ومعرفة وعقل يتدبر ويفكر. وكذلك

الحال في قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ [الهمزة: 6، 7] فكل ما فيه توقد والاحتراق تلحقه لفظة (الفؤاد).

كما تطلعن المعاجم العربية في مادة (ق. ل. ب) أنّ من معاني لفظة القلب التحول، والتغير، والصرف، وما ماثلهما في المعنى. فالقَلْبُ عند ابن منظور هو تحويل الشيء عن وجهه، كما يأتي بمعنى صرفك للإنسان أيضا؛ كأن تقول: قلبت فلانا أي صرفته عن الوجه الذي يريده، والقلب أيضا هو البحث والتصرف، فلو قلت: قلب الأمر؛ أي بحث فيه، وتقلب في أمور البلد، أي تصرف فيها كيف يشاء¹². فالملاحظ على هذه المعاني كلها بأنها تصب في تيار واحد، ألا وهو التحول والتغير، وهي معاني متقاربة جدا مع الوظيفة الحيوية التي يحملها القلب، الذي من وظيفته ضخ الدم وتحويله إلى أنحاء الجسم كاملة، وغالبا ما يدعو المسلم ربه بأن يثبت قلبه على ما هو محبب إلى ربه، لأنّ هذا القلب كثير التقلب، أي له أحوال مختلفة، تحصل جراء التغير والتحول الحاصل من لحظة إلى أخرى.

والراغب الأصمّهاني في غريبه يرى أنّ لفظة القلب تلحق بمعان تشمل الروح، والعلم، والشجاعة. ويجعلون من محكم تنزيه آية في ذلك، كقوله عزّ وجلّ ﴿وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي الأرواح،¹³. وقد جاء في كتب التفسير أنّ معنى بلغت القلوب الحناجر؛ أي من شدة الخوف والهلع خرجت قلوبهم إلى منتهى الحلقوم، أي زالت القلوب عن أماكنها متأثرة بالمشاهد المحيطة بها، حتى أحدثت مشكلة في النبضات، وتوقفت عن التنفس¹⁴. ويأتي هذا وصفا لحال المسلمين أثناء غزوة الخندق، فهيلع المسلمون وشدة خوفهم كادت تخرج معها أرواحهم.

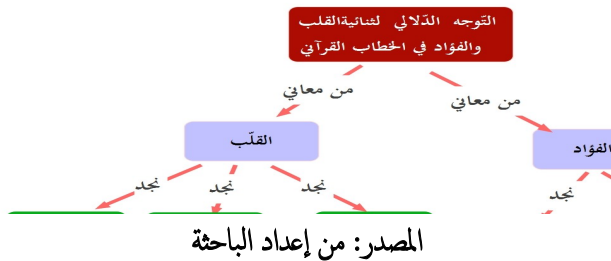
وبالعودة إلى النماذج التطبيقية المدرجة في الجدول أعلاه، نجد أنّ توظيف الخطاب القرآني للفظه القلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260] أنّ لفظة القلب تدخل في سياق المعاني التي ذكرناها سابقا، ألا وهي العلم والمعرفة. فسؤال النبي إبراهيم - عليه السلام - كان عن الكيفية التي يتم بها إحياء الموتى، وليس تشكيكا في قدرة الله عزّ وجلّ¹⁵. وهذا ما يوضحه سؤاله بكيف، فحتى في جواب إبراهيم عليه السلام على قوله تعالى (أولم تؤمن) كان بلى، ولكن رغبته في زيادة إيمانه دفعته للسؤال، فقوله (ليطمئن قلبي) تأكيد على ذلك، لأنّ معنى الطمأنينة الاستقرار والثبات. وقد جاء في الكلام عرب قولهم: "اطمأن قلبه إذا سكن"¹⁶، أي استقر وثبت، وهذا المعنى المعجمي القارّ يتماشى والسياق القرآني، فرغبة إبراهيم - عليه السلام - هنا هي زيادة في الايمان وتقويته واستمراريته. وعليه يكون توظيف (القلب) بنية زيادة المعرفة على علم يقين؛ فعلم اليقين ليس كخبر اليقين، بل هو أقوى من ذلك، فأن تكون على دراية وثقة، ليس كأن ترى بعينك وتطبق.

ولا يخرج قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97] عن المعنى السابق للفظه (القلب). فقد جاء في كتب التفسير أنّ المراد من قوله تعالى (نزل على قلبك) لما كان القلب محل العقل والفهم، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَهَكَوْنَهُمْ قُلُوبُ يَغْمُزُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46]¹⁷، وقد جاء في الصحاح أن القلب يعبر به عن العقل أيضا¹⁸، كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي عقل يتدبر به، ويفكر، ويتعظ.

ومجمل القول: إنّ القلب والفؤاد لفظتان متفاوتتان في المعنى، وفي الوظيفة أيضا، وإنّ انتقاء لفظة على حساب أخرى، وتوظيفها في الخطاب القرآني له تداعيات يفرضها السياق القرآني للآية، فلا يمكن للفظه (القلب) أن تحمل معاني

(الفؤاد) في الآيات السابقة، كما لا يمكن للفؤاد أن يأتي بمعاني القلب كذلك، فكل لفظة حُصِّت بوظيفة، وبمعنى يُستحضر متى ذُكرت أي واحدة منها في الخطاب.

الشكل (3): التوجه الدلالي لثنائية القلب والفؤاد



ب/ ثنائية (الكذب والإفك)

الجدول (2): التوجه الدلالي في ثنائية الكذب والإفك

الثنائية	أمثلة تطبيقية
الكذب	﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّهُمَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: 56]
الإفك	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [نور: 11] ﴿فَاتْلُوهِنَّ اللَّهُ أَمَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30]

المصدر: من إعداد الباحثة

جاء في اللسان بأن الكذب هو " نقيض الصدق"¹⁹ وهو عند العسكري " اسم موضع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به، وأصله في العربية التقصير، ومنه قولهم: كذب عن قرنه في الحرب إذا ترك الحملة عليه، وسواء كان الكذب فاحش القبح أو غير فاحش القبح"²⁰ فالمثال الذي قدمه العسكري فيه تقصير من الفارس أو الجندي في الدفاع والقتال ومجابهة الخصم. فهذا التقصير والترك هو تقليل في الصدق، إن لم نقل التخلي عنه كلياً، وكما أن الكذب يلحق القول كما يلحق الفعل أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]، فالسياق القرآني هنا يشير إلى صنيع أهل الكتاب في حق الله عز وجل، إذ جاؤوا بكلام مبتدع من عندهم ونسبوه إلى كلام الله، غير أن الله كذبهم حين قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

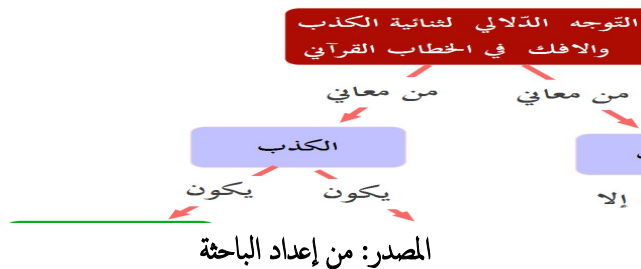
وقد ذكرت كتب التفسير بأن الـي هنا قسمان: يـي لفظي ويـي معنوي، فالـي اللفظي قسمان أيضاً: الأول ما كان الكلام فيه مبتدعاً من عندهم، غير أنه شابه كلام الله في طريقة التغمي به أو اللحن به، والثاني منها ما كان فيه تحريف في كلام الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، إذ يحرفونه بقولهم: (وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَى تَكَلِّمًا) أي نسبوا التكليم من موسى إلى الله، أما اللَّي المعنوي فيلحق الغلط الذي يلحق بتفسير كلام الله، على غير الوجه الذي أراده الله به²¹. فهنا يمكن تظليل هؤلاء الناس عن طريق الحق، والقول على الله بما ليس فيه. وكذلك الحال في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ كُلًّا مِّنْ قَبْلِهِ فَأَكْذَبُواْ وَكُنْتُمْ أَصْغَرًا﴾ [طه: 56] ففرعون هنا كذب كل آيات الله ولم يصدقها، إذن المعنى هنا لم يخرج عن إطار نقيض الصدق، وكذا التقصير في معرفة الله وفي الإيمان به، والاعتراف بقدرته وبأحقيته في العبادة دون شريك.

ويشير راغب الأصفهاني إلى أن الإفك هو "كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه"²². أي ما خرج عن الحق إلى الباطل، والإفك كما وصفه أبو هلال العسكري هو الكذب الفاحش القبيح، كأن يلحق هذا الكذب بالله عز وجل، أو رسوله، أو رمي المحصنات بغير حق، وما شابه ذلك²³. إذن الإفك ما كان فيه صرف عن الحق؛ أي تظليل، ألا ترى في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22] ضرب من هذا المعنى، إذ في اعتقاد هؤلاء أن دعوتهم إلى ترك ما هم عليه من عبادة الأصنام، والأوثان إلى عبادة الله الواحد الأحد، تظليل وصرف عن الحق إلى الباطل، فلما اعتقدوا ذلك - والأكد أن الحق غير ذلك - استعملوا لفظة الإفك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [نور: 11]، معنى يتأشى والمفهوم الذي قدمه أبو هلال العسكري، لأن الإفك في هذه الآية - كما تحدثت كتب التفسير - هو من أقبح الكذب، لأن فيه رمي للمحصنات بالباطل، وقول بما ليس فيهن، فالسياق القرآني هنا يسرد حادثة الإفك عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - التي نزلت فيها آيات تبرئها منه، وتؤكد طهارتها، وطهارة فراش النبي - صلى الله عليه وسلم - كما لا يخرج قوله تعالى: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30]، عن التوجه الدلالي السالف الذكر؛ أي كيف يظاهرون الباطل عن الحق وهم يعلمون. وخلاصة القول: إن الكذب والإفك ليس شيئا واحدا، وإنما تلحق كل مفردة بسياق يعطيها دلالة خاصة بها، لا يمكن أن تؤديها لفظة أخرى حتى وإن تشاركت معها المعنى العام ذاته، ففي السياقات السابقة، وبالضبط في حادثة الإفك على أم المؤمنين - عائشة رضي الله عنها - لو وظفت لفظة (الكذب) لما حققت الدلالة ذاتها، لأن الإفك لا يكون إلا فاحشا قبيحا، والكذب قد يكون قبيحا وقد يكون غير ذلك، ألا ترى في جوابك مثلا عن شخص سأل عنك إن كنت في البيت بقولك: لا، وأنت وقتها كائن في بيتك، فهل تقول عن هذا إفك؟ لا هو كذب وليس إفك، غير أنه لما كان في قول الله بغير حق كان فاحشا قبيحا.

الشكل (4): التوجه الدلالي لثنائية الكذب والإفك



ج/ ثنائية (هز و أ):

الجدول (3): التوجه الدلالي لثنائية هَزْ وَأَزْ

الثنائية	أمثلة تطبيقية
هَزْ	﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25]
أَزْ	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]

المصدر: من إعداد الباحثة

يقال إنَّ الهَزَّ هو "التحريك الشديد" قصد الحصول على الشيء المراد، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا﴾ [النمل: 10]؛ أي تتحرك، وقد فُسر الاهتزاز هنا بأبلغ من التحرك، إذ فيه قوة، واضطراب، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نَسْفِطُ الْأَرْضَ حَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: 39] أي أنَّ هذه الأرض اليابسة الهامدة بعد أن أنزل الله عليها الماء تحرك نباتها، والاهتزاز هنا يلحق النبات وليس الأرض، أي تحرك نباتها وانتفخ وعلا. فالمعنى هنا لا يخرج عن إطار التحريك، وفي قوله تعالى مخاطبا مريم عليها السلام: ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25]، يأمر الله تعالى مريم -عليها السلام- إلى أن تحرك جذع النخلة لتحصل على ثمار تسد بها جوعها، وتقوى بها، مما آلت إليه حالتها من ألم الخاض، والأكد أنَّ الله عز وجل قادر على أن يرزق مريم من غير جهد، إلا أنه ورغم ضعفها أراد أن تأخذ بأسباب الرزق.

أما (الأَزُّ) فهو مثل (الهَزُّ)، وقد جاء في لسان أَرَّ يُوْزُّ أَرًّا، بمعنى الحركة الشديدة، وفي قولك: أَرَّ الشيء يؤزّه؛ إذا ضَمَّ بعضه بعض²⁴. والأَزُّ في الصحاح التيسيع والإغراء²⁵. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، قيل في تؤزهم: أي ترجعهم وتدفعهم إلى المعصية، وهو معنى يتفق إلى ما ذهب إليه الرازي من تيسيع وإغراء، كما أنَّ فيه تحريك لمشاعر إلى ما فيه معصية أيضا.

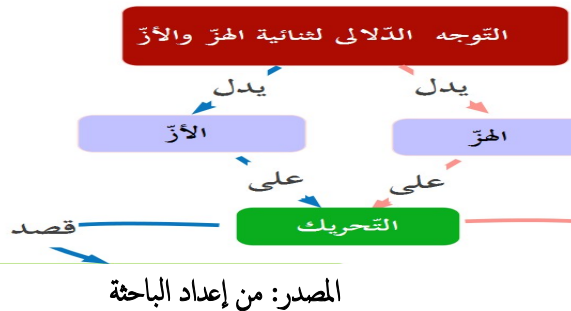
ولكن بالعودة إلى السياق القرآني نجد أن توظيف لفظة (هَزْ) كان في الأمور التي فيها خير ومنفعة، فالتحريك فيها كان لأمر فيه خير لصاحبه، فتحريك أو هَزْ مريم لجذع النخلة كان سدا لجوعها، وقوة لجسدها الضعيف وقتها، والهز في الأرض كان تحريكا لنبت جديد ورزق قادم، في مقابل ذلك كان الأَزُّ في السياق الذي فيه إغراء ومعصية وتيسيع للمشاعر.

وفي قراءة صوتية تأملية للفظتي (الأَزُّ والهَزُّ) نقف على نقاط التشابه والاختلاف بين اللفظتين، حدود هذه القراءة تُرسم على مستويين اثنين هما: المخرج والصفة، ومن ثمة يتبين لنا أنَّ اللفظتين قد تشاركتا في صوت، واختلفت في صوت آخر، وهما: (الهمزة والهاء)، والمدحش أنَّ كلا الصوتين مخرجهما من أقصى الحلق، غير أنهما يختلفان في الصفة. فصوت (الهاء) صوت مغموس، يضعف الاعتماد عليه في موضعه، مما يسمح بجريان للتنفس، أي يسمح بمرور الهواء ولا ينحبس، أما (الهمزة) فصوت مجهور، يشبع الاعتماد عليه في موضعه، مما يمنع التنفس من الجريان، فيحصل انحباس للهواء²⁶، والأمر ذاته يحدث من ناحية الشدة والرخو، فالهاء صوت رخو، يتماشى وصفة الهمس؛ بأن يضعف الاعتماد في مخرجه، فبمر الهواء، والهمزة صوت شديد يتشارك والجهر في انحباس الهواء، والقصد من استحضار هذه جزئية الصوتية هو ربطها بالسياق القرآني، فلما كانت حال مريم عليها السلام فيها ضعف، تناسبت معها أصوات مغموسة، خفية، ضعيفة

الاعتماد، وكأنها تحاكي ضعفها في الحركة، وفي الحديث أيضا، ناهيك عن الجانب النفسي أيضا، حيث كانت خائفة من ردة فعل قومها، وموقفهم منها، وهي المتعبدة والناسكة، فالدفع والتحريك هنا يقتضي اللين والرفق، وكذلك حال التربة في نبتها.

أما في قوله تعالى عن الشياطين فقد تناسب توظيف لفظة (أَزَّ) على لفظة (هَزَّ) لأنَّ ضبط النفس، وصرفها عن المعاصي يحتاج إلى قوة، كما أنَّ ملاذ الاتيان بالمعاصي حياة ضنكة، فيها مشقة وتعب، فالإغراء والتهبيج يحتاجان إلى قوة للإقناع، لذا فالشياطين تكثر من وسوستها، وزاعجها للإنسان حتى تأخذها إلى ارتكاب المعصية، وذلك بأن تُقوي الاعتماد والضغط على الانسان في أي موضع، حتى يحلَّ به ما هو مُكره عند الله.

الشكل (5): التوجه الدلالي لثنائية الهزّ والأزّ



د/ ثنائية (البحر واليمّ):

الجدول (4): الفرق الدلالي في ثنائية البحر واليمّ

الثنائية	أمثلة تطبيقية
البحر	﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَ الْبَحْرِ فَانْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50] ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 63]
اليمّ	﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 136] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]

المصدر: من إعداد الباحثة

تناولت المعاجم العربية اللفظتين بمعنيين متقاربين يصعب على العامة التفريق بينهما، إلا من خلال السياق المضمن لهما، والخطاب القرآني قد استعمل اللفظتين مرات عدة وفي مواضع مختلفة، ولما نعود إلى دلالة اللفظتين نجد أنها تُخصر في كثرة الماء واتساعه، فاليمّ مثلا في اللسان هو "البحر الذي لا يدرك قَعْرُهُ ولا شَطَاه ... وهو عند الزجاج البحر ... كما يطلق اسم اليمّ على ما كانا مأوّه شديد الملوحة، لا يستساغ شربه، وأيضاً على النهر الكبير الذي يكون مأوّه عذبا²⁷. وجاء

في القاموس المحيط بأن اليم هو: البحر، وأن هذه اللفظة ليس لها جمع، لا جمع تكسير، ولا جمع سالم، وعلى قولهم: يمّ الرجل، بمعنى طُرح في اليم²⁸. أما البحر فهو خلاف البرّ، وتأتي تسميته هاته بناء على اتساعه وعمقه، ناهيك عن غلبة المالح فيه وشدته²⁹، ونحن في استعمالنا اليومي نقول: التقيك بحر هذا الأسبوع، أي على مدار الأسبوع كاملا، فيبقى اليوم غير محدد، وفي قولك: أبحر في علمه، تقصد توسع فيه.

أما في القرآن الكريم فإن توظيف اللفظتين له صلة وطيدة بالسياق الحامل لهما، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ سَمِعْنَا مِنْهُمْ فَمَقْرَنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتِيهِمْ كَذْبُ آبَائِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 136] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 07] فإن اليم في السياقين مرتبط بالهلاك والعذاب والاعراق، مما يبعث الخوف والرعب في نفس صاحبه، فإله عز وجل انتقم من فرعون وجنوده وأغرقهم فيه، وكان هذا عذابا لهم استحقوه لما اقترفوه من معصية وجبروت في الأرض، وكان هاجس خوف لأم موسى على ابنها؛ إلا أن الله عز وجل طمأنها، وبعث السكينة في نفسها، بأن وعدها بحفظه وإرجاعه إليها بأفضل حال مصداقا لقوله: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، فخوف أم موسى على ابنها كان كخوف أي أم على ابنها لا تعرف ما ينتظره بعد أن ثلثه بنفسها في اليم.

وإنك لو تتبعت السياقات القرآنية التي وردت فيها لفظة اليم لما وجدتها خرجت عن معنى الهلاك، والعذاب والاعراق، وكل ما حمل خوفا ورعبا، فتمتع في قوله تعالى: ﴿وَأَنظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97] وفي قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فَزَعُونُ بِجُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78]، فكلها آيات فيها هلاك وعذاب، وما خرجت آية واحدة وردت فيها لفظة اليم عن هذا الرسم الدلالي.

أما توظيف لفظة (البحر) في القرآن الكريم فقد جاء في سياقات مختلفة، وموظفا بصفة مطلقة، فما تبنت قصة بعينها، ولا تعلقت بشخصية بحد ذاتها، وما كانت لغاية أحادية، كما كان عليه الحال مع لفظة اليم، التي لزمّت قصة سيدنا موسى عليه السلام، ولحقها مقام فيه هلاك، وعذاب، وعقوبة، وخوف، فقد استعملت كمقابل للفظه البرّ، كما أشارت إلى ذلك المعاجم العربية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الاسراء: 70]، في مقابل ذلك لم تقابل لفظة اليم البرّ ولا مرة في السياق القرآني، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن توظيف لفظة (البحر) جاء في سياقات تتم عن منفعة، وخير، ورزق للعباد، وهذا ما تطلعنا عليه الآية الكريمة؛ بأن نعم الله للإنسان فوق الأرض وفي البحر كثيرة، وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79] فالعمل هنا يأتي بنية الرزق، والبحر في هذه الحال مصدر لذلك الرزق، ومنفعة وخير لأولئك المساكين.

كما نجد من معاني البحر ما كان في مقام التخويف، والعذاب أيضا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 06]، والبحار هنا جمع بحر، فرغم عظمتها إلا أنها توقد نارا يوم القيامة، فنصبح الأرض يابسة لا ماء فيها، فقد تغيرت وظيفة البحار من كونها مصدرا للرزق إلى أن تسجر مياهها فتكون نارا، أي مصدرا للعذاب، والهلاك يوم الحساب. ولما نعود إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فُزِقْنَا بِكُمُ الْبَحْرُ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50] نلمس

مقامين اثنين للبحر، مقام كان فيه البحر مصدر نجا، ومقام آخر كان فيه مصدر هلاك، فآله عز وجل أنجى موسى، ومن تبعه في البحر نفسه الذي أغرق فيه فرعون وجنوده.

وخلاصة القول: إنّ التنوع في توظيف لفظي (اليم والبحر) في الخطاب القرآني نابع من حكمة إلهية، تكشف عن انسجام وتناسق رهييبين بين اللفظ ومعناه.

الشكل (6): التوجه الدلالي لثنائية اليم والبحر



المصدر: من إعداد الباحثة

4. الخاتمة:

وفي نهاية هذه الرحلة العلمية التي كان مدار البحث فيها منصبا حول موضوع بلاغة انتقاء اللفظ القرآني وعلاقته بالسياق، وتحديدًا من خلال ظاهرة الفروقات اللغوية، حيث تشكلت حدود دائرتها عند الألفاظ المتقاربة في المعاني، التي يخالها البعض مترادفات، غير أنّ الحقيقة البتة ليست كذلك، وهو ما أبانت عليه نماذج الدراسة التطبيقية. ومن ثمة فقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج نقدمها للقارئ تترى كما يلي:

- إنّ في الألفاظ العربية بلاغة تنماز عما هو كائن في اللغات الأخرى.
- إنّ الألفاظ المتقاربة في المعاني ليست مرادفات لبعض.
- إنّ للصوت والبناء والظروف السياقية تأثير على التوجه الدلالي للألفاظ.
- كلّ لفظة وُظفت في الخطاب القرآني قد انمازت بدلالة أكسبها إياها السياق الواردة فيه، حيث وضعت وضعا فنيا مقصودا تناسب مع السياق شكلا ومعنى.
- إنّ مراعاة الخطاب القرآني للفروقات الدقيقة بين معاني الألفاظ المتقاربة يتم عن جمالية فريدة من نوعها فهذا الخطاب المقدّس.

وبعد كل ما قيل فإنّا بمساهمتنا هاته لا نزع سبق الدراسة، والتفرد بها، والإحاطة بكل ما فيها من قضايا جوهرية، وإنّا لحقنا فحوات علمية، لعلّها تكون بداية لدراسة جديدة، تفي حقها من الدراسة، فحسبنا الاجتهاد والمحاولة والله ولي التوفيق.

هوامش:

- ¹ - علي القاسمي، 2003، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ط1، لبنان، مكتبة لبنان، ص: 20.
- ² - ينظر: منير رمزي بعلبكي، 1990، معجم المصطلحات اللغوية، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، ص: 283.
- ³ أبو هلال العسكري، الفروقات اللغوية، تخ: إيهاب محمد إبراهيم، الجزائر، دار الهدى، ص: 13.
- ⁴ - أحمد الحملاوي، 2017، شذا العرف في فن الصرف، ط1، القاهرة، دار الاتباع، ص: 20.
- ⁵ - أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، ص: 17.
- ⁶ - ينظر: أبو هلال العسكري، الفروقات اللغوية، ص: 14.
- ⁷ - ينظر: أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، ص: 43.
- ⁸ رمزي البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص: 119.
- ⁹ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، ص: 3333، 3334.
- ¹⁰ ينظر: الفيروز آبادي، 1998، القاموس المحيط، تخ: مكتبة تحقيق التراث، ط6، دمشق، مؤسسة الرسالة، ص: 305.
- ¹¹ ينظر: محمد بن صالح العثيمين، 2002، تفسير القرآن الكريم، ط1، السعودية، دار ابن الجوزي، ص: 44.
- ¹² ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 3713.
- ¹³ ينظر: الزاغب الأصفهاني، 2009، مفردات ألفاظ القرآن، تخ: صفوان عدنان داوودي، ط4، دمشق، دار القلم، ص: 681.
- ¹⁴ ينظر: محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 101.
- ¹⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص: 299.
- ¹⁶ ابن منظور، لسان العرب، ص: 2707.
- ¹⁷ ينظر: محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 314.
- ¹⁸ ينظر: محمد بن أبي بكر التازي، 1986، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، ص: 228.
- ¹⁹ أبو منظور، لسان العرب، ص: 3840.
- ²⁰ أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 31.
- ²¹ ينظر: محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 448.
- ²² الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص: 79.
- ²³ ينظر: أبو هلال العسكري، الفروقات اللغوية، ص: 31.
- ²⁴ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 72.
- ²⁵ ينظر: محمد بن أبي بكر التازي، مختار الصحاح، ص: 6.
- ²⁶ ينظر: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تخ: عبد السلام محمد هارون، ط2، ج4، القاهرة، مكتبة الخانجي، ص: 433.
- ²⁷ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 4966.
- ²⁸ ينظر: فيروز آبادي، القاموس المحيط، ص: 1172.
- ²⁹ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 216.

6. قائمة المراجع:

المصدر:

1. القرآن العظيم، المصحف الشريف، برواية حفص عن عاصم.

الكتب:

1. علي القاسمي، 2003، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ط1، لبنان، مكتبة لبنان.
2. منير رمزي بعلبكي، 1990، معجم المصطلحات اللغوية، ط1، بيروت، دار العلم للملايين.
3. أبو هلال العسكري، الفروقات اللغوية، تح: إيهاب محمد إبراهيم، الجزائر، دار الهدى.
4. أحمد الحملاوي، 2017، شذا العرف في فن الصرف، ط1، القاهرة، دار الاتباع.
5. ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
6. الفيروز آبادي، 1998، القاموس المحيط، تح: مكتبة تحقيق التراث، ط6، دمشق، مؤسسة الرسالة.
7. محمد بن صالح العثيمين، 2002، تفسير القرآن الكريم، ط1، السعودية، دار ابن الجوزي.
8. الراغب الأصفهاني، 2009، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، ط4، دمشق، دار القلم.
9. محمد بن أبي بكر الرازي، 1986، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان.
10. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط2، ج4، القاهرة، مكتبة الخانجي.